مقدمة

لا شك أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانت من أحب زوجات الرسول ﷺ إلى قلبه، فهى بنت أبى بكر الصديق أول من أسلم من الرجال، والذى كان له دوره البارز فى حياة الرسول، وكان خليفته الذى قضى على الفتن ومدعى النبوة، وأعاد للإسلام وحدته وقوته، وأعطى إشارة البدء للفتوحات الإسلامية الكبرى التى تصدت وقضت على الامبراطورية الفارسية، وحطمت الامبراطورية الرومانية..

وكان عهده امتداداً لعهد الرسول ﷺ..

وأمها أم رومان زينب بنت عامر بن عويمر.

وقد قال الرسول عن أبى بكر الصديق:

« رحم الله أبا بكر زوجنى ابنته، وحملنى إلى دار الهجرة، وأعتق بلالاً من ماله ».

وقد تزوجها ﷺ وهى صغيره السن - على اختلاف الرواة فى سنها عندما دخل بها الرسول - وكانت قريبة إلى قلبه، واعية لمسيرة الأحداث، فاهمة لسنته ﷺ.. وبذلك صححت الكثير من الأحاديث التى رويت عنه ﷺ، وشرحت

الكثير من الأحاديث المتعلقة بفقه المرأة كما فهمته من الرسول.. ومن هنا نعرف مغزى الحديث الشريف:

« كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ».

إنها مثال للمرأة المسلمة التى كونت شخصيتها مبادئ الإسلام وقيمه وفضائله، وتأثرت تأثراً كبيراً بشخصية الرسول ﷺ، ونقلت للناس العديد من شمائله ﷺ.

وقد عاشت السيدة عائشة حتى عام ٥٦هـ.. أى أنها شاهدت الدعوة وهى ما زالت محاصرة فى مكة، وشاهدتها وقد فكت حصارها، وانطلقت بقوة هائلة تحرز الانتصارات المذهلة على الأعداء، وتنشر النور فى كل مكان، بعد أن حطمت على يد خلفاء الرسول امبراطوريتى الفرس والروم.. فانهزمت الأولى هزيمة ساحقة، وتقلصت الامبراطورية الرومانية بعد أن أوقعت بها الهزائم الساحقة فى الشام وفلسطين ومصر والشمال الأفريقى.

سيدة عظيمة.. أحبها الرسول أكثر من غيرها من نسائه وهذا الميل القلبى ليس له يد فيه.. فهو يعدل بين نسائه..

ولكن فى العاطفة.. كان أميل لعائشة.. وكان يقول:

« اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك ».

وكانت هى الأخرى تحبه حبًا جمًا.. وكانت تغار عليه غيرة شديدة، حتى إنها اتبعته ذات يوم، على ظن أنه ذاهب إلى إحدى زوجاته ولكنها رأته يتجه نحو البقيع ليدعو لشهداء المسلمين.. يومها قالت لنفسها:

« بأبى أنت وأمى.. أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا ».

وعندما عاد ﷺ من البقيع لاحظ ما ألم بها فسألها:

- ما هذه النفس يا عائشة؟

فقالت:

- بأبى أنت وأمى.. أتيتنى فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستها.. فأخذتنى غيرة شديدة ظننت أنك تأتى بعض صويحباتى حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع.

كانت شديدة الذكاء.

وكانت تجيد القراءة والكتابة وتحفظ الكثير من الشعر..

وكل ذلك جعلها تستوعب السنة.. وتقدِّر زوجها فأحبته من أعماق نفسها.

كان النبى ﷺ يخصف نعله يومًا وهى تغزل، ورأت العرق على وجهه، فتصورت أن حبات العرق على جبينه - لحبها له - تتألق نورًا فاعترتها الدهشة.

قال لها الرسول ﷺ:

- مالك بهت؟

قالت:

يا رسول الله نظرت إلى وجهك فجعل عرقك يتولد نورًا.. فلو رآك أبو كبير الهزلى لعلم أنك أحق بشعره.

قال ﷺ:

- وما يقول يا عائشة أبو كبير الهزلى؟

قالت يقول:

ومبرأ من كل غير حيضة

وفصاد مرضعة وداء مقبل

وإذا نظرت إلى أسرّة وجهه

برقت كبارق العارض المتهلل

فقام رسول الله ﷺ وقبلها بين عينيها وقال:

- **بارك الله فيك عائشة.**

وقد زاد من حبه لها صداقته الحميمة لأبيها الصديق.

وقد سأل عمرو بن العارص رسول الله يومًا:

- يا رسول الله من أحب الناس إليك؟

قال: عائشة.

- إنما أقول من الرجال؟

- **أبوها.**

ولا يختلف أحد على فصاحتها وقدرتها على البيان.. ومن أجل هذا روى أن الرسول ﷺ قال:

- **خذوا شطر دينكم من هذه الحميراء.**

وإذا كنا بصدد الحديث عن السيدة عائشة ودورها فى السنة النبوية، فيجب أن نتوقف قليلا عند أهمية السنة لأنها هى المكملة للقرآن الكريم والشارحة له.

ولكن لماذا نهى الرسول ﷺ عن تدوين الحديث، ثم عاد فأمر بالتدوين؟

فى العهد المكى.. كان الناس فى حاجة إلى أن يعوا ما جاء فى القرآن الكريم وحديثه عن الجنة والنار، والثواب والعقاب، وعدم الشرك بالله.. ونبذ عبادة الأوثان.. وكان القرآن ينزل بإعجازه المبهر متحدثًا عن عالم الغيب.. فكان كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه (السنة فى مكانتها وتاريخها) لا بد من تقديمه - أى القرآن الكريم - كما نزل فى ثوبه الإلهى البحت حتى تصبح المعالم - معالم الإعجاز المعجز - بيِّنة سافرة، من أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ عن كتابة حديثه.. صلوات الله وسلامه عليه.. ولكن فى فترة العهد المدنى تغير الوضع، ويقول الدكتور عبد الحليم محمود عن الأسباب التى أوجبت تدوين السنة فى عهد الرسول:

.. وكان المسلمون قد ألفوا الجو الإسلامى وألفوا الأسلوب القرآنى، وعرفوا مفهوم الشرك ومفهوم التوحيد، وتبينت لهم الفروق الفاصلة بين العلم والجهل.. وبين الإسلام والجاهلية، وبين توجيه الوجه للذى فطر السموات والأرض، وتوجيهه للأصنام أو الشهوات أو اللهو.. لم تكن هناك ظروف توجب عدم كتابة الحديث، ولم يكن هناك من خوف على خلط أسلوب القرآن الكريم بغيره.

وكان لا بد من تقييد شروح الرسول ﷺ، وتفسيراته. لم تكن هناك ظروف توجب عدم كتابة الحديث، وكانت هناك ظروف توجب كتابته.

وبدأ الصحابة رضوان الله عليهم يكتبون.

ويقول أيضًا:

ولقد اشتهرت كتابة عبد الله بن عمرو لكل ما يصدر عن الرسول ﷺ، حتى لقد نوقش فى ذلك من بعض القرشيين: يقول رضي الله عنه، حسبما يروى فى سنن الدارمى وغيره: كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ، أريد حفظه فنهتنى قريش وقالوا: تكتب كل شىء سمعته من رسول الله ﷺ! ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم فى الغضب والرضا! فأمسكت عن الكتاب. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بإصبعه إلى فيه، وقال: «**اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا حق**».

وروى عن أبى هريرة - كما يذكر الترمذى - أن رجلا من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله ﷺ، فيسأل أبا هريرة فيحدثه، ثم شكا قلة حفظه إلى الرسول ﷺ، فقال له النبى ﷺ: «**استعن على حفظك بيمينك**» . . أى بالكتابة.

وروى عن رافع بن خديج كما يذكر فى كتاب (تقييد العلم) أنه قال: قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟

قال: اكتبوا ولا حرج.

مع أنه قد روى عن رسول الله ﷺ، أنه كتب كتاب الصدقات والديات، والفرائض والسنن لعمر بن حزم وغيره كما يروى ذلك صاحب كتاب (جامع بيان العلم وفضله).

ويروى كيف كان الصحابة ينقل بعضهم عن بعض، فعروة بن الزبير رضي الله عنه ينقل عن خالته السيدة عائشة رضوان الله عليها، فتقول له: يا بنى إنك تكتب عنى الحديث، ثم تعود فتكتبه.

فقال لها: أسمعه منك على شيء. ثم أعود فأسمعه على غيره.

فقالت: هل تسمع فى المعنى خلافًا؟

قال: لا.

قالت: لا بأس بذلك.

فالحديث عن السيدة عائشة رضى الله عنها، يقودنا إلى معرفة الكثير من السنة، وأيضًا الكثير من أخلاقيات الرسول

وسلوكياته وشخصيته ﷺ.

تلك الشخصية الآسرة التى قال عنها سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

[آل عمران: ٣١]

فطاعة الرسول من طاعة الله.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًا﴾.

[الأحزاب: ٣٦]

وفى هذا البحث الموجز.. إشارة إصبع إلى سيرة حياة الصدِّيقة بنت الصديق.. السيدة عائشة رضى الله عنها.. حيث نرى الذكاء الوقاد.. ونرى الإيمان العميق.. ونرى الحب مجسداً فى حبها لرسول الله ﷺ، وما يعترى هذا الحب البشرى من حرص على الرسول وغيرة عليه.. شأنها شأن أى امرأة تحب زوجها.

إنها صورة مشرقة للمرأة المسلمة التى جعل منها الإسلام وتعاليمه.. تلك السيدة العظيمة التى سيظل اسمها خالداً أبد الدهر.. لأن هذا الاسم يقترن بأعظم وآخر رسل السماء محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

مأمون غريب